الفصل الثانى

تيـــار الوعى الـــدافق

قلت منذ بضع دقائق قليـــلة إن أكثر العوامل والعناصر تعميما — فيما يتعلق بالعقل وطرائق أدائه — هو كل ما يحتاج إلى أن يعرفه المعلم على الاطلاق لتحقيق أغراضه .

بيد أن الحقيقة المباشرة التى يتعين على علم النفس — علم العقل — أن يدرسها ويفحصها هى أيضا أكثر الحقائق تعميما .

هذه الحقيقة هى أنه يوجد فى كل منا فى حالات اليقظة (وغالبا فى حالات النوم) نوع مستمر موصول الدوام من الوعى أو الشعور .

فهناك تيار ، أو سلسلة متتابعة من الحالات أو الموجات أو المجالات (أو سمها ما شئت) من المعـــرفة والاحســـاس والرغبة والتأمل والتبصر والتدبر الخ الخ . تمر ثم تعود للمرور كرة أخرى ، وهى التى تشكل حياتنا الباطنية .

إن وجود هذا التيار هو الحقيقة الأولى والأعلى . وطبيعته ومصدره هما ركيزة علم النفس ولب المشكلة فيه .

وإذا نحن قسمنا حالات الوعى أو مجالاته ، وفصلنا طبائعها العديدة ، وحللنا محتوياتها الى عناصر ، أو اقتفينا أثر عادات تتابعها ، فاننا نكون على المستوى الوصفى والمنسوب التحليلى . أما اذا تساءلنا عن مصدرها وعن السبب فى كونها كذلك فاننا نصبح على المستوى التفسيرى .

اذ ينبغى الاعتراف بصراحة أننا لا نعرف — فى أى معنى أساسى — من أين تصدر تلك المجالات المتتابعة للوعى ، ولا السبب فى تكوينها الباطنى الدقيق على هذا النحو الذى يشكلها كما هى عليه .

إنها بالتأكيد تنبع أو تصاحب حالات مخنا . أما أشكالها الخاصة فتقررها طبعا خبراتنا الماضية وتربيتنا .

ولكن اذا سألنا كيف يكيفها المخ فليست لدينا أية اشارة ، أو أقل بصيص ، عن الجواب . واذا سألنا كيف تصوغ التربية العقل فاننا لا نستطيع أن نجيب الا بعبارة مجردة عامة حدسية تخمينية .

فاذا قلنا ان مردها الى كائن روحى يسمى روحنا التى تتفاعل مع حالاتنا العقلية بوساطة تلك التكوينات العجيبة من الطاقة الروحية فان كلماتنا ستكون مألوفة بدرجة كافية . هذا صحيح ، ولكنى أظن أنكم توافقون معى على أنها كلمات لا تنقع غلة ولا تشفى غليلا ، ولا تعطينا معانى أصيلة تفسر لنا الأمر وتشرحه وتلقى عليه الضوء .

الحقيقة أننا لا نعرف فعلا الأجوبة عن تلك الأسئلة على المستوى التفسيرى ، على الرغم من أنه قد يوجد فى بعض نواحى البحث بعض التأملات التى تفسح أمامنا فرصة الأمل . لذلك سأتحاشاها كليا لأنها لا تخدم غرضنا الحاضر ، وأتناول مجرد الوصف .

هذا هو ما كان يعتمل فى ذهنى ويدور فى خلدى منذ برهة وجيزة عندما قلت انه لا يوجد علم نفس جديد أو حديث جدير بهذه التسمية .

عندنا اذن مجالات للوعى . . هذه هى الحقيقة الأولى العامة .

والحقيقة الثانية العامة هى أن تلك المجالات المحددة هى دائما معقدة التركيب .

فهى تشمل إحساسات جسومنا والأشياء المحيطة بنا ، وذكريات خبراتنا الماضية وما علق بأذهاننا من أفكار عن الأشياء السحيقة فى البعد ، ومشاعر الارتضاء والتقبل والسخط والتذمر ، ومواضع حبنا ورغباتنا وثورنا وكراهيتنا وظروفنا وحالاتنا الانفعالية ، مضافا إليها ما تقرره إرادتنا بالعزم والتصميم بكل ما فيها من صنوف وأشكال وأمزجة .

على أنه فى معظم حالاتنا المحددة من الوعى فان كل تلك الصنوف والأشكال والأمزجة المختلفة بتركيباتها وعناصرها توجد معا وفى الوقت نفسه إلى حد ما على الرغم من أن نسب تفاعلاتها فيما بينها وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر تتفاوت بين وضع وآخر ، وتنتقل مراكز الثقل فيها من منطقة لمنطقة ، وعنصر لعنصر ، وشكل لشكل ، أى إنها لا تثبت على حال وإنما تظل فى حالة تنقل موصول .

فقد تبدو حالة منها كما لو كانت تتكون من أحاسيس ولا شىء سواها. وثمة حالة أخرى لا تتركب الا من الذكريات ولا شىء عداها ، الى آخره . ولكن اذا تمعنا فى الأمر وجدنا أن الاحساس ليس إحساسا صرفا وإنما يلابسه دائما ويحيط به غلاف من الفكر والارادة ، وان الذكريات ليست ذكريات بحتة ، وانما تحوطها ظلال من الانفعال والاحساس وفى معظم مجالات وعينا يوجد لب من الاحساس واضح المعالم الى درجة كبيرة .

وأنتم الآن مثلا — على الرغم من كونكم تفكرون وتشعرون — فان عيونكم تنقل اليكم احساسات وجهى وشكلى ، وآذانكم تنقل اليكم احساسات صوتى ، فالاحساسات هى المركز أو البؤرة ، والأفكار والمشاعر هى الهامش بالقياس الى مجال وعيكم الحاضر الفعلى .

وثمة جانب آخر للمسألة — فقد تصبح بؤرة انتباهكم العقلى موضوعا

معينا من موضوعات التفكير ، أو صورة بعيدة من صور الخيال ، حتى فى أثناء حديثى ، فعقلكم قد يحلق بعيدا عن المحاضرة ، وفى هذه الحالة تصبح احساسات وجهى وصوتى — على الرغم من أنها لا تختفى تماما من مجال وعيكم — فى وضع هامشى لا يحتل من وعيكم الا مساحة ضئيلة نحيلة .

وبتعبير آخر قد يكون هناك شعور متعلق بجسم الواحد منكم نفسه قد عبر منطقة الهامش الى منطقة البؤرة حتى فى أثناء حديثى معكم .

ان هذين التعبيرين : هامش الشعور ، وبؤرة الشعور ، اللذين ندين بهما للعلامة ، لويد مورجان Loyd Morgan لا يحتاجان فيما أعتقد الى مزيد من الشرح والتفسير ، بيد أن الفرق المميز بينهما فى غاية الأهمية .

وهذان هما أول اصطلاحين من الاصطلاحات الفنية التى سأطالبكم بتذكرها .

وفى التقلبات المتتابعة لمجالات الوعى فان سبيل ذوبان أو انسياب الواحد فى الآخر غالبا ما يكون تدريجيا وتحدث كل أنواع وصنوف اعادة التنظيم الداخلى للتركيب والمحتويات .

فأحيانا تبقى بؤرة الشعور بتغيير طفيف فى الوقت الذى يتغير فيه هامش الشعور بسرعة .

وأحيانا تتغير البؤرة ويبقى الهامش كما هو عليه ، وأحيانا يحدث تبادل بين البؤرة والهامش فيحتل كل منهما مكان الآخر .

وثمة حالات أخرى تحدث فيها تغيرات فجائية وعاجلة تنتاب مجال الوعى برمته .

وقلما يوجد وصف حاد أو قاطع لهذه الظواهر ، وكل الذى نعرفه أنه

فى — معظم الحالات — يكون لكل مجال نوع من الوحدة العملية بالقياس الى صاحبها .

وإنه من وجهة النظر العملية هذه يمكننا أن نصنف مجالا معينـا مع المجالات الأخرى الشبيهة به بأن نطلق عليه حالة افعال أو خبرة أو إحساس أو تفكير أو إرادة أو ما شابه ذلك .

وعلى الرغم من أن تفسيرنا لتيار الوعى الدافق يبدو غامضا وضبابيا فانه تفسير لا لبس فيه على الأقل ، وبمأمن من الخطأ الايجابى ، وخال من أى خليط من التخمين أو الحدس أو الافتراض الذى لا يقوم عليه دليـل .

ولقد حاولت احدى مدارس علم النفس ذات النفوذ — فى استهدافها تحاشى اللبس والضبابية فى اختصار نظريتها-أن تجعل الأمر يبدو أكثر تحديدا وعلميا بأن تجعل التحليل أكثر حدة .

فمجالات الوعى المختلفة — طبقا لهذه المدرسة — هى نتيجة عدد محدد لحالات عقلية أولية محددة تحديدا تاما تترابط وتندمج وتندغم الى خليط كيموى كالفسيفساء .

وعند بعض المفكرين مثل سبنسر Spencer أو تين Taine تذيب هذه الحالات نفسها أخيرا وتتشكل على صورة جزيئات أو ذرات نفسية أولية من « مادة العقل » تنبثق منها وتبنى من مادتها مباشرة كل الحالات العقلية المعروفة — على حد قولهم .

ولقد قدم لوك Locke هذه النظرية على نحو غامض نوعا ما .

فلقد اعتبر « أفكار » الاحساس والتأمل البسيطة — كما سماها — اللبنات التى يتركب منها البناء العقلى . واذا قدر لى بعد ذلك أن أشير الى هذه النظرية مرة أخرى فسأسميها نظرية «المثل» .ولكنى سأحاول أن أجدف بعيدا عنها .

وسواء أكانت نظرية مصيبة أم باطلة فهى على أية حال نظرية تخمينية فحسب ، أما فيما يتعلق بأهدافكم العملية كمعلمين فان المفهوم الأقل ادعاء لتيار وعى الشعور بموجاته الكلية أو مجالاته المتغيرة باستمرار سيكون كافيا وافيا بمطلبكم (*).

(*) فى ضوء بعض التوقعات فى الخارج المتعلقة « بعلم النفس الجديد » فمن المفيد قراءة اعتراف مؤسسها وندت Wundt وهو اعتراف مخلص سليم النية على غير المنتظر ـ بعد ثلاثين عاما من التجريب فى المختبرات حيث يقول :

ان قوام الخدمة التى تستطيع الطريقة التجريبية أداءها ـ هو بالضرورة تدريبنا على سلامة الملاحظة الباطنية او بالأحرى كما اعتقد جعل هذه الملاحظة ممكنة بالفعل فى معناها الدقيق . حسنا ـ هل استطاعت ملاحظتنا الذاتية التجريبية ـ على هذا النحو ـ أن تثمر اية ثمرة ذات اهمية ؟ .

لا توجد اجابة عامة عن هذا السؤال لأننا فى هذا الوضع الراهن المبتسر لعلمنا ـ لا يوجد ـ حتى فى داخل الخطوط التجريبية للبحث ـ قانون سيكولوجى عام قد تم تقبله وثبوته بصفة عامة شاملة .

وفى غمار هذا النشاز والتنافر فى الآراء (وهو أمر مفهوم له ما يسوغه فى وقت يتميز بالبلبلة وفترة من التطور يتحسس الناس فيها طريقهم وهم يتخبطون) فان الفرد المعنى بالبحث لا يستطيع الا شيئا واحدا وهو أن يعرف أى الآراء والبصائر التى يتعين عليه ان يثنى من أجلها الطرق المستحدثة ، فاذا ما سئلت عن قيمة الملاحظة ، التجريبية فى علم النفس بالنسبة الى فيما مضى والآن فينبغى ان اقول انها اعطتنى فكرة جديدة تماما عن طبيعة وارتباطات عملياتنا الباطنية .

لقد تعلمت مما تم انجازه عن طريق حاسة البصر أن ادرك حقيقة التركيب العقلى الخلاق ومن بحثى فى علاقات الزمن ... الخ .. تكونت عندى بصيرة قادرة على النفاذ فى ادراك الاتحاد الوثيق القائم بين كل الوظائف النفسية التى نفرق بينها ونعزلها عن بعضها عادة باصطناع تجريدات وأسماء نخلعها عليها كالتخييل والشعور والارادة لذلك استطعت ان اتبين العروة الوثقى التى لا انفصام لها والتجانس والالتحام الداخلى فى كل حالات الحياة العقلية . ان دراسة الضبط الذاتى لعمليات الترابط بينت لى فى نهاية الأمر

أن فكرة « الصور » العقلية المنعزلة كانت احدى تلك الأفكار العديدة من خداع الذات التى لا تكاد تجد لها تعبيرا فى كلمة أو عبارة حتى تقذف بأوهام وخيالات لا وجود لها فى علم الحقيقة .

لقد تعلمت أن أفهم « الفكرة » أو « المثل » على اعتبار أنه سبيل مؤقت لا يقل ذوبانا أو فنـــاء عن أى عمل من أعمـــال الشـــعور أو الارادة ثم تبينت أن القانون القديم الخاص بترابط الأفكار أصبح لا يتماسك لوهيه . بالاضافة الى ذلك كله فان الملاحظة التجريبية زودتنا بمعلومات أخرى عن المدى القياسى للوعى وعن سرعة بعض العمليات العقلية وعن القيمة العددية الدقيقة لبعض المادة المجمعة فى علم النفس وما شابه ذلك . بيد أننى أرى أن كل تلك النتائج المتخصصة هى حصيلة فرعية جانبية ليست ذات بال نسبيا ، وليست هى الشىء الهام على أى نحو . هذه الفقرة مأخوذة من كتاب :

Philosophische Studien, X. 121 - 124

وينبغى قراءة ذلك القسم كله الذى وردت فيه تلك الفقرة .

وكما أفسرها فانهـا تصل الى خطب ود تام للمفهوم الأكثر غموضا لتيار التفكير ونبـــذ كامل للقضية برمتهـا التى ما زالت متبعة فى كتب علم النفس المقررة ــ بكل جد ومثابرة ــ حيث نقسم « العقل » ونخرطه الى وحدات متباينة فى التركيب والأداء والوظيفة ثم نحصيها عدا ونخلع عليها أســـماء من المصطلحات الفنية .